عدد خاص

المورد

مجلة تراثية فصلية

تصدرها وزارة الثقافة والاعلام - دار الجاحظ - الجمهورية العراقية

المجلد الثامن - العدد الرابع 1400 - 1979

4

WWW.ATTAWEEL.COM

أسد الدين محمد

حدائق الحيوانات في بغداد

بقلم
عادل محمد علي
وزارة الشباب ـ بغداد

فلسفة عن فكرة انشاء حدائق الحيوان في وادي الرافدين

لقد كان العرب سباقين في كل شيء طرقوه من اركان الحضارة الانسانية في الابتكار والاختراع والتطوير ؛ فهم اسياد افكارهم وبناة العلوم التي اصبحت فيما بعد اهم اسس بناء الحضارة العلمية العالمية . وقد يندهش اكثرنا اذا علم ان الاقوام العربية القديمة كانت هي اول من عرف اقتناء الحيوانات وبناء اماكن شبيهه بحدائق الحيوانات الحالية ؛ ويشير المؤرخون الى ان عملية انشاء او اقامة حدائق الحيوان في العصور القديمة في العراق مرت بثلاثة اشكال من الحدائق ؛ الشكل الاول مناطق الصيد المتواجدة ضمن الرقعة المملوكة لهذا الامير او ذاك وهذا ما شهدته على وجه التحديد فترة السومريين فقد كان ملوك هذه الدولة يمتلكون حدائق مسورة تضم كثيرا من الحيوانات لاغراض الاحتفالات التي كانت تعد لكهان وقادة الشعب والملوك (الذين يسهمون في خدمة آلهة القوم) وحاشيتهم فيرخي في اثناء مسيرته الدرج الثلاث لبلوغ قمة برج المعبد . ومن هذا المطاف السامق يتاح للمحتفلين ان يشاهدوا دخان الضحايا منبعثا من مزارات بعيدة ؛ وبعدئذ يهبون الآلهة الضحية التي تطلبها من المخلوقات الحية والتي تقضي بها الطقوس المقدسة[1]. ويؤكد المؤرخون على ان جنائن بابل المعلقة الشهيرة كانت تضم بين ما تضم من حدائق غناء جناحا كبيرا من انواع الحيوانات والطيور ولا سيما التي تعيش في المناطق الجبلية . في حين لم يقم الاكديون ببناء مثل هذه الصيغ من حدائق الحيوان ! .

والشكل الثاني هو احاطة مناطق تواجد الحيوانات بقوانين صارمة لحمايتها لا من منطلق الحفاظ عليها وانما من اجل توفيرها لاغراض الصيد مثل هذا النوع من القوانين كان واضحا ايام الملك الاشوري ، آشور ناصربال الثاني) .

واحوت مسلة الملك الشهير حمورابي في احدى موادها مواصفات للرقع الارضية وغطائها النباتي واماكن اختباء الحيوانات وكانت كلها تهدف الى حماية تواجد الحيوانات البرية في مناطق الامبراطورية البابلية وهي اشبه ما تكون حدائق حيوانات مفتوحة اي ما يسمى الان بالمحميات الطبيعية .

وقد انقرضت كثير من الحيوانات في تلك الفترة نتيجة الصيد المستمر ، ويبدو ان حيوان البيسون الذي كان يرتاد سهول امريكا بصورة خاصة كان نوعا منه على ما يظن موجودا في العراق وكان يعرف بالسومرية بكلمة « الم » وكانت له قدسية في العصر الكلاسيكي ، ولما انقرض (في الالف الرابع ق. م) استمر السومريون على تمثيله في فنونهم برأس عجل تشد عليه لحية مستعارة لان البيسون يتميز عن الثور بلحيته ، وهذا ما نشاهده في القيثارة الذهبية المعثور عليها في اور التي تبعد ١٥ كم عن مدينة الناصرية حيث

(١) المعرفة/المجلد الاول ـ بيروت/ص ١٦٥ .

WWW.ATTAWEB.COM

نرى اللحية مشبته بشريط على انف العجل في مقدمة القيثارة(٢) .

ويذكر لنا الملك الاشوري تغلات بلاصر الاول (١١١٢ ــ ١٠٧٤ ق.م) بانه بعد ان طارد قبائل احلامي في حملته العسكرية الخامسة عبر نهر الخابور قتل في المنطقة الواقعة بالقرب من مدينة حران عشرة فيلة واصطاد اربعة احياء نقلها الى بلاده ليحتفظ بها في الحديقة التي نظمها ليشاهد الحيوانات بصورة حية .

ويبدو من هذه الاشارة ان عدد الفيلة اخذ يقل في هذه الفترة . وظلت اعداد منها ترتاد الفرات في زمن اشور ناصربال الثاني الى ان انقرضت باصطيادها من قبل الاشوريين انفسهم في القرن الثامن قبل الميلاد . اما الاسود فقد كانت منتشرة في شمال العراق وجنوبه وظلت تذكر في الكتب العربية ، واخر اسد ذكر اصطياده كان عام ١٨٩٦(٣) .

ومثلما انقرض البيسون والفيل والاسد ، كذلك انقرضت الخيول البرية والنمور والفهود والقطط وبقر المهاة وحمر الوحش والايايل واليحمور والضباع والضان البرية ، ومن الطيور النعام وغيرها .

وينقل لنا زينفون صورة للبيئة التي شاهدها بنفسه عندما رافق في حدود عام ٤٠٠ ق.م الحملة التي سار بها كورش الامير الاخميني الثائر من آسيا الصغرى الى طيسفون (المدائن) . ويقول زينفون : البلاد سهلة منبسطة كالبحر مكسوة بشجيرات الافستين وبكل ما ينبت من الاعشاب والشجيرات ذات الرائحة العطرية ، الا انه لا توجد اشجار . ومن الحيوانات البرية الكثيرة الانتشار الحمار الوحشي والنعام ، ويلي ذلك كثرة الحباري ثم الغزلان التي طاردها فرساننا . والحمر الوحشي لما طوردت سبقت الخيل (لانها اسرع منها) ، ثم وقفت ولما اقتربت منها خيولنا ركضت ثانية ثم وقفت ، وهكذا لم يتمكن فرساننا من اصطيادها الا بعد ان انقسموا الى زمر فتمكنوا من ملاحقتها من جميع الجهات واستطاعوا اصطياد الواحد منها بعد الاخر . ان لحم الحمر المصطادة يشبه في طعمه لحم الغزال الا انه اكثر طراوة . وظل هذا الحيوان يرتاد بادية جزيرة العراق الى زمن حديث . يذكر لنا الثقب المشهور لبارد بانه شاهد قطيعا من حمر الوحش في طريقه من سنجار الى تلعفر في عام ١٨٤٦(٤) .

اما الشكل الثالث فهو اقامة حدائق حيوانات حاوية على حضائر او بيوت من الاسلاك المشبكة ضمت الطيور بشكل اساسي ، وبطنها الطيور التي كانت تأتي كهدايا . وفي عهد ظهور الاسلام والدولة العربية اخذت حدائق الحيوان شكلا مميزا يتسم بالروعة والبهجة حيث احتوت قصور الخلفاء على نوادر الطيور والحيوانات الوحشية ، وفي نفس الوقت ومع بداية التطور العلمي في العصر الذهبي للعرب كانت حدائق الحيوانات والنباتات تتخذ كمراكز للتزود العلمي للفقهاء والعلماء في ذلك العصر . يقول الاب انستاس ماري الكرملي « ان العرب سبقوا غيرهم من الامم في انشاء حدائق الحيوانات وانهم كانوا يسمون حديقة الحيوان (حيرا) ، وجمعه (حيران) ، ومنها القصور الشهيرة التي بناها الامويون في اطراف الجزيره العربية مما يلي الاردن وسوريا من امثال قصر الحير الشرقي والحير الغربي وغيرها » .

ويقول الاستاذ ميخائيل عواد : (اتخذت الحيوانات الكاسرة في بدء الامر للهو فقط ، ثم جاء خلفاء بني العباس فاتخذها الاوائل منهم لاقامة الهيبة وحفظ نظام المملكة وحراستها من اطماع الرعية ، فارتبطوا الاسود والفيلة والنمور . ذكر المؤرخون ان الخليفة المنصور عنى بجميع الفيلة لتعظيم الملوك السالفة اياها واقتنائها لها واعدادها للحروب والزينة في الاعياد وغيرها ، انها اوطأ مراكب الملوك وامهرها . وكان للرشيد اقفاص فيها الاسود والنمور وغيرها . ثم تطور الامر من بعد ذلك فعنى الخلفاء والامراء والملوك واعيان القوم بتخصيص محل واسع الارجاء يضم جملة كبيرة من مختلف اصناف الحيوان الكاسرة والداجنة والطير والهوام والحشرات ويطلق على ذلك المكان «حير الوحوش» فالحير : بستان واسع فيه انواع الحيوان وهو المسمى بالانكليزية (Zoo) ، والعرب سبقوا الامم المتمدنة . الى اتخاذ تلك الحضائر لحبس الوحوش والحيوان فيها ، ودرس اخلاقها وعاداتها ، مع التفرج على ما هنالك من عجيب المخلوق)(٥) .

---

(٢) البيئة الطبيعية القديمة في العراق/سومر ، الجزء ١ و ٢/ص ٥ .
(٣) المصدر السابق/ص ٧ .
(٤) المصدر السابق/ص ٧ .
(٥) حدائق الحيوان في العصور الاسلامية/ص ٣٠ .

وقد تجدد الاهتمام بانشاء حدائق الحيوانات في العراق في العهد العباسي لان انشاء مثل تلك الحدائق كان من مظاهر الترف الكبرى التي تفنن المراقيون في تنظيمها وتزيينها ، ومن هنا راح بعض الخلفاء وغيرهم من الموسرين والهواة يقبلون على انشاء حدائق الحيوانات في قصورهم وحدائقهم ويبذلون الاموال لجلب مختلف انواع الحيوانات من اقصى بقاع الارض .

وكانت حدائق الحيوانات لدى المراقبين تصمم على اشكال متباينة فالبعض من الهواة كانوا يجمعون الحيوانات والطيور في اقفاص وحظائر بين اشجار الفاكهة والكروم والاوراد . وكان بعض الناس يجمع بالاضافة الى الطيور والحيوانات المختلفة انواع الافاعي والحيات والعقارب والضبية (مفردة ضب ، نوع من الزواحف) والقطايا وما شاكلها في اقفاص خاصة بها في تلك الحدائق ايضا. وكان البعض الاخر يقيم حديقة منفصلة او يقتطع ركنا واسعا من احدى حدائق قصره ليجمع فيه ما يستطيع جمعه من كل زوجين اثنين ويجعل لكل زوج منها قفص خاص به . وهناك من يفرد لكل زوج من الحيوان او الطير جناحا خاصا واسعا يكون مسورا تسويرا قويا وعاليا بحيث تستطيع الحيوانات ان تتحرك فيه وان تحلق الطيور في اجوائه بكل حرية ، فالحيوانات في مثل هذه الاجنحة لا تقيد بالسلاسل ولا تحتجز داخل الاقفاص وانما تترك حرة طليقة داخل تلك الاجنحة(٦) .

وكان لهذه الحيوانات رجال مواظبون يعنون باطعامهم وتنظيفها ويتحققون من نظافتها ونظافة الاماكن التي تعيش فيها .

وكان جمع هذه الحيوانات وجلبها من اقاصي المعمورة يكلف اموالا طائلة ، فالبعض من الخلفاء والموسرين لم يكن ليكتفي بارسال المبعوث والرسل الى مختلف الاقطار لجلب اندر الحيوانات والطيور فحسب وانما كانوا يستخدمون امهر القناصة والصيادين لاصطياد الطيور والحيوانات المتوحشة ايضا .

فقد كان لدى الخليفة الامين جماعة من اصحاب اللبابيد والحراب (وهي العدة الخاصة باقتناص الحيوانات الضارية) يركبون البغال ويصطادون له الاسود ويضعونها في اقفاص ثم يجلبونها الى قصر الخليفة(٧) .

(٦) حدائق الحيوانات في العراق/ص ١٧ .
(٧) المصدر السابق/ص ١٨ .

بغداد أسبق العواصم في انشاء حدائق الحيوان

لقد ولع الخلفاء العباسيين باقتناء انواع الحيوانات والطيور والاسماك ، وذلك لحبهم للطبيعة وما يتعلق بها ، وبالنظر لان بغداد كانت عبارة عن غابة متشابكة الاشجار والنخيل مما جعلها تعج باصناف كثيرة من الطيور والحيوان وهذا كان يدفع الخلفاء والامراء والناس الى التمثل بهذه الغابة الكبيرة بحيث يجعلوا بعض الاماكن في دورهم أو بقربها غابات مصغرة لذلك .

ويشير الاستاذ سليم طه التكريتي الى ذلك فيقول : (بغداد سبقت غيرها من عواصم العرب والشرق في انشاء حدائق الحيوانات وان تلك الحدائق لم تكن من معالم الابهة والزينة التي اغرق فيها بعض الخلفاء العباسيين ومن جاء بعدهم من السلاطين حسب ، وانما شاركهم في هذه الهواية انشاء حدائق الحيوان عدد كبير من الهواة الذين برزوا البعض من الخلفاء والوزراء في هذا المضمار).

واشهر من اسس الحيوانات وانشأ لها الحدائق والمرابي ، وعهد الى ذوي الاختصاص رعايتها والقيام على شئونها الخليفة هارون الرشيد ففي عام ٧٩٧م ارسل الخليفة نفسه الى الملك الفرنسي شارلمان هدية تتكون من فيل وبعض النسانيس اخرجها من حديقة حيوانات بغداد آنذاك . ولما افضت الخلافة الى الامين وجه الى جميع البلدان في طلب الوحوش والسباع والطير وغير ذلك . ولشدة ولعه بجمع الحيوان امر بعمل خمس حراقات في دجلة . والحراقات : (جمع حراقة وهي ضرب من السفن) وجعلها على شكل حيوان (اسد ، فيل ، عقاب ، حية ، فرس) . وكان الامين يتردد كثيرا على حير الوحوش ومعه ابراهيم الموصلي المغني الشهير ـ قال شاهد عيان ان ابراهيم غنى في احد الايام اشد طبقة يتناهى اليها في العود .

قال : وما سمعت مثل غنائه يومئذ قط ، ولقد رايت منه شيئا عجيبا لو حدثت به ما صدقت كان اذا ابتدأ يغني اصغت الوحوش اليه ومدت اعناقها ولم تزل تدنو منا حتى تكاد ان تضع رؤوسها على المحل الذي كنا عليه ، فاذا سكت

نفرت وبعدت عنا حتى تنتهي الى ابعد غاية يمكنها التباعد فيها عنا . وجعل الخليفة الامين يعجب من ذلك(٨) .

ويقول الدكتور احمد سوسة في كتابه (ري سامراء في عهد الخلافة العباسية): (ويستدل مما ذكره المؤرخون ان المأمون (١٩٨ ــ ٢١٨هـ / ٨١٣ ــ ٨٣٣م) قد انشأ حير للوحوش حيث جاء في معجم ياقوت ان الحير كان قد انشيء من قبل المأمون قبل توليه الخلافة ، وقد انشأ بجواره ميدانا اركض الخيل واللعب بالصوالجة وقد الحق الميدان والحير بالقصر المعروف بالجعفري وهو القصر الذي بناه جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك قبل ان اوقع الرشيد بالبرامكة ، ثم سمي هذا القصر بالمأموني ثم الحسيني عندما وهبه المأمون الى عمه حسن بن سهل وذلك بعد ان تزوج المأمون بنت بوران بنت الحسن بن سهل ، واليك ما كتبه ياقوت في مادة التاج ، قال : « وكان قصر الجعفري احب المواضع الى المأمون واشهاها لديه واقتطع جملة من البرية عملها ميدانا لركض الخيل واللعب بالصوالجة وحيرا لجمع الوحوش وفتح له بابا شرقيا الى جانب البرية واجرى فيه نهرا ساقه من نهر المعلى وابتنى مثله قريبا منل منازل برسم خاصته واصحابه سميت المأمونية ») .

وكان في قصر الخليفة المقتدر بالله ببغداد حوالي عام (٣٠٠هـ / ٩١٢م) حيرة بها قطعان من اصناف الوحش ، وصار يفنيها بكل غريب من الحيوان من جميع العالم وخاصة الاسود ، ولم تكن السباع في ذلك العصر نادرة بالشام ولا على شواطيء نهري دجلة والفرات ، بل كانت احيانا تدنو قريبا جدا من بغداد ، حتى انه في عام ٣٣١هـ ــ ٩٤٣م خرج الخليفة المقتدر الى الشماسية بجوار بغداد لصيد السباع(٩) . وجاء ذكر هذه الحدائق التي تقع في مدينة بغداد الشرقية باسم الحير ايضا اذ ذكر ابن مسكويه في كتابه («تجارب الامم » ان بعض جند المقتدر شق عصا الطاعة (٢٩٥ ــ ٣١٠هـ / ٩٠٨ ــ ٩٣٢م). فنهب قصر الثريا وذبح الوحش الذي في الحير وذبحوا البقر التي لاهل القرى التي حوله وخرج اليهم مونس وضمن لهم ارزاقهم فرجعوا الى منازلهم)(١٠) .

(٨) حدائق الحيوان في العصور الاسلامية/مجلة هنا بغداد/ص ٢١ .
(٩) الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري/ص ٢٦٤ .
(١٠) ري سامراء في عهد الخلافة العباسية/ص ٢٩٦ .

ولعل الحيوانات التي في هذه الحير هي من جملة الوحش الذي نقل من (سر من راى=سامراء الحالية) الى حير بغداد ؛ وذلك بعد ان تم ارجاع مقر العاصمة الى مدينة السلام في عهد المعتضد (٢٧٩ ــ ٢٨٩هـ / ٨٩٢ ــ ٩٠٢م) وفي عام ٣٠٥ للهجرة (٩١٧م) وصل الى بغداد سفراء من القسطنطينية للتفاوض للصلح بين الخليفة المقتدر وعاهل الامبراطورية الرومانية الشرقية ، فشهدوا في بغداد ما وصفه الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد بقوله : « ولقد ورد رسول لصاحب الروم في ايام المقتدر بالله ، ففرشت الارض بالفروش الجميلة وزينت بالالات الجليلة .. ووقف الجند صفين بالثياب الحسنة ، وتحتهم الدواب بمراكب الذهب والفضة ، وبين ايديهم الجنائب (هي الخيل ، جمع جنيبة ؛ وهي الفرس تقاد ولا تركب) ؛ على مثل هذه الصورة » .

« وادخل رسل صاحب الروم من دهليز باب العامة الاعظم الى الدار المعروفة بخان الخيل، وهي دار اكثرها اروقة باساطين رخام ؛ وكان فيها من الجانب الايمن خمسمائة فرس عليها خمسمائة مركب ذهبا وفضة بغير اغشية ، ومن الجانب الاير خمسمائة فرس عليها الجلال الديباج (جل الدابة ، كثوب الانسان يقيه البرد) بالبراقع الطوال ؛ وكل فرس في يدي شاكرى بالبزة الجميلة » .

« ثم ادخلوا من هذه الدار الى الممرات والدهاليز المتصلة بحير الوحش (الحير : الحظيرة او الحمى) . وكان في هذه الدار من اصناف الوحوش التي اخرجت اليها من الحير قطمان تقرب من الناس وتتشممهم وتأهل من ايديهم . ثم اخرجوا الى دار فيها اربعة فيلة مزينة بالديباج والوشي ؛ على كل فيل ثمانية نفر من السند والزراقين بالنار ... فهال الرسل امرها » .

« ثم اخرجوا الى دار فيها مائة سبع ، خمسون يمنه وخمسون يسره ، في رؤوسها واعناقها السلاسل والحديد ؛ وشاهدوا الزرافة والفهود وحيوانات اخرى كثيرة »(١١) .

(١١) حدائق الحيوان/دائرة معارف الشعب/ص ١٩٧ ــ ١٩٨ .

وأشتهر عضد الدولة البويهي بتربيته الحيوانات وافرد حديقة خاصة بها في قصره . وكان مما اعتاده عضد الدولة انه اذا جلس على كرسيه يامر باحضار النمور والسباع وغيرها من الحيوانات المفترسة فتحضر اليه مقيدة بالسلاسل ثم توضع في حواشي مجلسه ، وكان يفعل ذلك بغية ارهاب الناس واخافتهم وكان للخليفة القاهر بالله ببغداد بستان للطير ، كانت لذته من الدنيا . وصفها المؤرخ والرحالة العربي المسعودي صاحب كتاب « مروج الذهب » بقوله : « كان نحو جريب (فدان) قد غرس فيه النارنج وحمل اليه من البصرة وعمان مما حمل من ارض الهند ، وقد اشتبكت اشجاره ولاحت ثماره كالنجوم من احمر واصفر ، وبين ذلك انواع الفروس والرياحين والزهر ، وقد جعل في ذلك الصحن انواع الاطيار مما قد جلب اليه من المماليك والامصار . وكان في غاية الحسن » .

واشتهرت حديقة الحيوان للوزير ابن مقلة (عاش في اواخر القرن الثالث واوائل القرن الرابع الهجري) في منطقة الزاهي من شمالي بغداد الحالية على نهر دجلة وخبرها طريف للغاية لما كانت عليه من النضرة والبهجة والبهاء . حكى شاهد عيان انه راى شبكة الابريسم التي كان افرخ فيها ابن مقلة الطيور الغريبة قال : فعمد الى مربع كبير فيه بستان عظيم عدة اجربة (اي فدادين) فقطع منه قطعة من زاوية ، فكان مقدار ذلك جريبين بشباك ابن ابريسم ، وعمل في الحائط بيوتا تاوى اليها الطيور وتفرخ فيها . ثم اطلق فيها القماري والدباس والقبج والفواخت والطيور التي التي من اقاصي البلاد من المصونة ومن المليحة الريش فتوالدت وجاءت باجناس غريبة ؛ ثم عمد الى باقي الصحن فطرح فيه الطيور التي لا تطير كالطواويس والبط وعمل منطقة اقفاص فيها فاخر الطيور وجعل من خلف البستان الغزلان والنعام والايائل والارانب والابل والبقر البدوية وحمر الوحش . ولكل صحن ابواب تنفتح الى الصحن الاخر فيرى من مجلسه سائر ذلك . ويقول ابن الجوزي في كتابه « المنتظم في التاريخ » ان ابن مقلة كان يحاول ان يجرب التزاوج بين الحيوانات المختلفة . وحدث ذات مرة ان وقع طائر بحري في حديقته تلك على طائر بري فازدوجا وباضا وافقا فلما بشر بذلك اعطى من بشره به بهدية مائة دينار على ذلك .

ومن الذين اشتهرت حدائق الحيوان لديهم في بغداد ايضا « أبو جعفر محمد بن جعفر القوملي » وكان من السراة المترفين ، ابتنى له في بغداد دارا فسيحة يحيط بها بستان واسع يضم مختلف اشجار الفاكهة والورود وافرد في تلك الدار حديقة خاصة بالحيوانات التي كانت تضم اندر الطير والغزلان والسباع وغيرها . وقد تحدث « ابو عبد الرحمن العتبي » انه دخل ذات يوم على محمد القوملي وهو جالس على ضفة تقع على بركة ماء ويشرف منها على البستان وحير الغزلان وحظيرة القماري واشباهها ، فقلت له : « يا ابا جعفر انت والله جالس في الجنة ! » ؛ فقال : « فليس ينبغي لك ان تخرج من الجنة حتى تصطبح فيها ! » .

سامراء تتوج بهاءها ببناء حدائق حيوانات كبيرة فيها

وكان بقصر الخليفة بسامراء على عهد المعتصم ؛ مكان يحفظ به الحيوان ، وهو يسمى « حير الوحش » ؛ ويحكى عن المعتز حوالي منتصف القرن الثالث الهجري انه اطلع عبيدالله بن عبدالله بن طاهر ، وقد نزل ضيفا عنده على عراك بين اسد وفيل ، وكان ذلك احد العجائب التي اطلعه عليها(١٢) .

وقام الخليفة المتوكل ، بانشاء حير للحيوانات: وتقع هذه الحدائق خارج مدينة سامراء ومشتملاتها من جهة الشرق بين القاطولين ، القاطول الاعلى الكسروي وبين القاطول الاسفل (نهر القائم) وهي مسورة بسور من الطين يحيط بها من جميع اطرافها ويستدل من آثار هذا السور على ان الحديقة كانت مستطيلة الشكل يمتد ضلعاها الجانبيان باتجاه الشمال ، اما الضلعان الاخران فان الضلع الشمالي الذي يمتد من الغرب الى الشرق يتصل بكل من الضلعين الجانبيين في ركنيهما بزاوية قائمة . اما الشرقي فيسير على محاذاة نهر القاطول الاسفل (مجرى القائم) على مسافة ٦٥٠ مترا تقريبا من منفته اليسرى ، ويتصل الضلع الاخير هذا بالقصر الذي بالمشروحات حيث يقع في منتصف هذا الضلع تماما . وبلغت مساحة الحير حوالي ٢٠ الف مشارة وجاء ذكر حير الحيوانات التي ابتناها المتوكل عند اليعقوبي قال : « وهذه الشوارع التي من الحير كلما اجتمعت الى اقطاعات لقوم هدم الحائط وبنى خلفه حائط غيره وخلف الحائط الوحش من الضباء

(١٢) الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري/ص ٢٦٤ .

والحمير الوحش والايائل والارانب والنعام ، وعليها حائط يدور في صحراء حسنة واسعة »(١٣) .

ومما يدل على ان الساحة التي تقع فيها حديقة المتوكل للحيوانات كانت تسمى بالحير ، وانها كانت الى جانب القاطول ، وصف للبحتري لهذه الحديقة في شعره فقد سماها بالحير اي بمعنى الحديقة او البستان ، فقال يخاطب المتوكل مشيرا الى حيوانات الحديقة .

يرعن منك الى وجه يرين له
جلالة يكثر التسبيح رائيها
حتى قطعت بها القاطول واخترقت
بالحير في عرصة فسح نواحيها

ويشير البحتري كذلك في اشعاره الى ان عدد الحيوانات التي كانت في الحير الذي انشاه المتوكل، يقدر بالفي وحش وفي ذلك قال وهو يخاطب المتوكل .

الفان واخت على قدر مسارعة
الى قبول الذي حاولته فيها

وهذه الابيات مما انشده البحتري يصف بها حديقة حيوانات المتوكل وصفا رائعا :

ولم انسّ وحش القصر إذ ربع سربه
واذ ذعرت اطلاؤه وجآذره
واذ صيح فيه للرحيل فهتكت
على عجل استاره وستائره
ووحشته حتى كان لم يقم به
انيس ولم تحسن لعين مناظره
كان لم تبت فيه الخلافة طلقه
بشاشتها والملك يشرق زاهره
ولم تجمع الدنيا اليه بهاءها
وبهجتها والعيش غض مكاسره

ومما يؤيد وجود السباع في حير المتوكل ما ذكره المسعودي عن قتلها على عهد المهتدي (٢٥٥ ـ ٢٥٦هـ / ٨٦٩ ـ ٨٧٠م) وهذا نصه : « وقد كان المهتدي بالله ذهب في امره الى القصد والدين فقرب العلماء ورفع من منازل الفقهاء وعمهم ببره وكان يقول يا بني هاشم دعوني حتى اسلك ملك عمر بن عبدالعزيز فاكون فيكم مثل عمر بن عبدالعزيز في بني امية . وقلل من الباس والفرش وامر باخراج آنية الذهب والفضة من الخزائن فكسرت وضربت دنانير ودراهم وعمد الى الصور التي كانت في المجالس فمحيت وذبح الكباش التي كان يناطح بها بين ايدي الخلفاء ، والدبوك وقتل السباع المحبوسة ورفع بسط الديباج وكل فرش لم ترد الشريعة باباحته »(١٤) .

ويمكن ان نستخلص ان الحير المذكور كان يضم عددا كبيرا من الحيوانات المفترسة والوحوش الضارية ، وكانت هذه الفواري في الاقفاص وضمن الجدران الداخلية وكان قسم آخر منها وهو القسم الاكبر طليقا وسط الحير الواسع ، وكانت مساحة الحير من السعة بحيث يسهل معها الصيد والقنص.

حدائق الحيوان والصيد

بعد مجيء خلفاء بني العباس الى الحكم وبناء المدينة المدورة بغداد ، اقبل الحكام والمتنفذون والمحكومون على الترف وكانت متع الصيد وجمع الحيوانات في اقفاص ولذاذاته في طليعة ما اقبلوا عليه ، فجعلوا يقضون في حفلاته ورحلاته اجمل ايام العمر ، وينفقون على جوارحه وضواريه انفس المال . فكان المهدي محبا للصيد مشغوفا به حتى انه لا يكاد يغيب (من تغيب القوم : اي اناخ يوما وتركهم يوما) او يصير عنه ، وقد اكثر من رحلات الصيد وروي له فيها طرائف وحوادث منها ما نقله المسعودي وغيره عن الفضل بن الربيع انه قال : خرج المهدي متنزها ومعه مولاه عمرو بن ربيع وكان شاعرا فانقطع عن العسكر والناس في الصيد فانتاب المهدي جوع شديد ، فقال لعمرو : ويحك الا انسانا عنده ما ناكل ! ! فما زال عمرو يطوف الى ان وجد صاحب مبقلة والى جانبها كوخ له فقعد اليه ، فقال هل عندك شيء يؤكل ؟ قال : نعم ، رقاق من خبز شعير وزبيب وهذا البقل والكراث ، فقال له المهدي : ان كان عندك زيت فقد اكملت ، قال : نعم عندي فضلة منه ، فقدم اليهما ذلك فاكلا اكلا كثيرا . واوفى العسكر ولحقته الخزائن والخدم والموكب ، فامر لصاحب البقلة بثلاث بدر دراهم(١٥) .

---

(١٢) ري سامراء في عهد الخلافة العباسية/الجزء ٢/ص ٢٩٤ .

(١٤) المصدر السابق/ص ٢٩٦ .
(١٥) الصيد عند العرب/ص ٤٤ .

وقد عرف ملوك البلاد المجاورة ولع المهدي بالضواري وشدة شغفه بالصيد وجمع الحيوانات حتى ان « ميخائيل بن ليون » عظيم الروم لما وقف على ذلك اهدى اليه كتابا في دفن البيزرة كان لاوائل الروم . وقيل ان المهدي كان يحتفظ بانواع عديدة من الحيوانات التي كان يصطادها في مكان ملحق بقصره على شكل حديقة حيوانات صغيرة .

وكانت للرشيد رحلات صيد صاخبة يقوم بها ومعه رجال دولته وبعض شعرائه من امثال ابي نواس ، وكان الخليفة يتخلى في هذه الرحلات عن وقاره . وكان اذا نمي اليه خبر متفنن في الصيد استقدمه اليه واتخذه لنفسه ، فقد روى صاحب (انس الملا) انه كان في زمن الرشيد رجل من اهل البصرة اسمه ابراهيم البازيار يصيد جميع الطير وكان له كتاب في البيزرة ، وكان من ادوات صيده التي استحدثها نصب الدبق ، فاستدعاه الرشيد اليه واحله عنده منزلة عالية لمعرفته بالضواري وبالدبق ، وتفرع التدبيق من ابراهيم البازيار ، ودبق الناس بعده بخمس قصبات او اكثر زمن المأمون . وكما عرف عن المهدي في الافاق ولعه بالصيد وادواته فقد عرف مثل ذلك عن الرشيد فاغتنم «نقفور» ملك الروم باحدى المناسبات الطيبة واهدى الرشيد اثنى عشر بازيا واربعة اكلب من كلاب الصيد ليتقرب اليه بها(١٦) . وقد ضمها الرشيد الى حديقة حيواناته بعد ذلك .

وبعد ان آل الامر من بعد الرشيد الى ابنه محمد الامين فقد كان اشد حبا للصيد واحرص عليه من كل من تقدمه . فقد روى المسعودي ان الامين اصطبح يوما وكان اصحاب اللبابيد والحراب قد خرجوا على البغال الى سبع كان بلغهم خبرة بناحية (كوثى) (والقصر) فاحتالوا عليه الى ان اتوا به في قفص من خشب على جمل بختي فحط بباب قصر الامين وادخل عليه فلما مثل في صحن القصر والامين مصبح قال لهم : خلوا عنه وافتحوا باب القفص ، فقيل له : يا امير المؤمنين ، انه سبع هائل اسود وحشي . وقد قال « ابراهيم بن المهدي » استأذنت على الامين وما وقد اشتد عليه الحصار من كل وجه فاذا هو قد طلع الى دجلة بالشباك ، وكان في وسط قصره بركة عظيمة وفي المخترق شباك حديد فسلمت عليه وهو مقبل على الماء والخدم والغلمان قد انتشروا يفتشون الماء وهو كالوانه ، فقال لي وقد ثنيت بالسلام وكررت ، لا تؤذوني فمقرطقتي ذهبت في البركة مني الى دجلة ومقرطقته هذه سمكة كانت صيدت له وهي صغيرة فقرطها حلقتين من ذهب فيهما حبتا در ، قال فخرجت وانا يائس من فلاحة ، وقلت : لو ارتدع من وقت لكان هذا الوقت »(١٧) .

وورث المتوكل عن اجداده الولع بالصيد من اجل اشباع رغبته في اكثار حيوانات حيرة التي كانت من اعظم حير الحيوانات في ذلك الوقت . وشغف المعتضد بالله بالفهود والاستكثار منها واربى عليه في ذلك حتى قال صاحب الجمهرة « واكثر من اشتهر باللعب بالفهود من العباسيين المعتضد ، فانه كان شديد الغوايه بها »(١٨) .

والحقيقة ان الصيد الذي مارسه خلفاء بني العباس وغيرهم من الوزراء والامراء يكن لمجرد الاستمتاع واللهو كما يظن الكثيرون وانما كان في اكثر الاحيان لغرض تزويد الحدائق التي ابتنوها لهم بالحيوانات المختلفة وارسال قسم منها كهدايا للملوك وامراء الدول المجاورة لهم لتقوية مركزهم الدولي .

بغداد تعيد مجدها من جديد في انشاء حدائق الحيوانات

وبعد مرور حقبة تاريخية طويلة اندثرت فيها فكرة انشاء حدائق الحيوانات بسبب الحروب والغزوات المتتالية التي تعرض لها العراق ومن بينها بغداد . الا انه كانت هناك محاولات شخصية قام بها ولاة وحكام مناطق وشخصيات كبيرة ووجهاء في اقامة حدائق للحيوانات المختلفة وللطيور او لحيوان معين فقط ، في قصورهم او اراضيهم

(١٦) المصدر السابق/ص ٤٨ .

(١٧) المصدر السابق/ص ٤٩ .
(١٨) المصدر السابق/ص ٤٩ .

الزراعيـــة . وفي هذا الصـــدد يقول الاستاذ سليم طه التكريتي : (ولقد ظل العراقيون سائرين منذ ذلك الوقت على هذه الهواية اللطيفة الغريبة ، هواية اقامة حدائق الحيوانات في بيوتهم وبساتينهم وفي اوائل القرن الحالي اشتهرت دار محمد فاضل باشا الداغستاني وكانت تقع مقابل وزارة الدفاع الحالية وبجوار جامع المرادية بوجود حديقة فيها تضم الاسود والفهود والنمور والدببة وغيرها . واذكر حادثة وقعت في دار محمد باشا الداغستاني مؤداها ان طفلا مر من احد الاقفاص التي وضعت فيها الاسود وسرعان ما اخرج اسد كفه من بين القضبان وامسك بالطفل وسحبه واطبق على اطرافه بفكيه . واذ علا صراخ الطفل واكتشف امره استدعي محمد باشا على عجل الى مكان الحادث فاسرع بفتح باب القفص وتوجيه لكمة قوية الى راس ذلك الاسد الذي اطلق الطفل من بين فكيه وتم بذلك انقاذه من موت محقق) .

وفي عام ١٩٥٧ بدات فكرة انشاء حديقـــة حيوان بغداد اسوة بباقي العواصم العربية والعالمية وتتويجا لحضارة وادي الرافدين العريقة فاتخذ من المنطقة المجاورة للمحطة العالمية لسكك حـــديد الجمهورية العراقية في منطقة علاوي الحلة كنواة لحديقة حيوانات ، فضمت هذه الحديقة الصغيرة بعض انواع من الغزلان العراقية والطيور المتنوعة عراقية وغير عراقية وبعض انواع من الضبـــاع والثعالب والذئاب والنمر العراقي الذي يعيش في شمال القطر جلبت على شكل هدايا قدمت من قبل اشخاص كانوا يحتفظون بها في بيوتهم وحدائقهم حصلوا عليها عن طريق الصيد او الشراء . وبعد ان ضاقت هذه الحديقة بالحيوانات التي جلبت لها وعدم ملائمة موقعها كحديقة وصغر مساحتها ، فكرت الجهات الرسمية بنقلها من هذا المكان الى متنزه حدائق الزوراء وتوسيعها لتصبح احدى الحدائق الكبيرة في المنطقة العربية .

فقامت امانة العاصمة بانشاء حديقةالحيوانات باعتبارها مرفق ترويح تمثل احدى مظاهر وسمات التطور التي تنطوي عليها مجالات التسلية في المدن العصرية .

ومن اجل ذلك خصصت الامانة موقعا كبيرا وسط متنزه الزوراء الفسيح لانشاء مثل هذه الحديقة في عام ١٩٧١ . وقامت بتحويل اقسام هذا الموقع الذي يضم بحيرة وجزيرة ومضيفـــا للراحة داخل الجزيرة ، الى اجنحة لمجاميع عديدة من الحيوانات في بيآت مختلفة من بينها حيوانات من البيئات العراقية ، وضمت هذه المجاميع الكثير من الحيوانات والطيور من مختلف قارات العالم مثل الاسود والنمور والذئاب والضباع والدببة والكركدنوالحمار الوحشيوالفهود والقردة بانواعها والخنازير والنعامة والزرافة والغزلان بانواعهـــا ومجاميع عديدة من انواع واصناف الطيور والاسماك وغيرها .

وزودت الحديقة بالمشـــرفين والمروضين والاطباء لرعاية الحيوانات ومعالجتها ، كما زودت الحديقة ببنادق خاصة لاطلاق الابر المخـــدرة في اجسام الحيوانات الضارية لدى معالجتهـــا او الحيلولة دون هربها . ويقصد حديقة حيوانات بغداد عشرات الالوف منالمواطنين سنويا. واعادت امانة العاصمة النظر في الحديقة الرئيسة لتعدها اكثر عصرية وتطورا واوفى غرضا من حيث بيئتها وتشكيلها العلمي وشروطها الصحية ، فقامت بانشاء عديد كبير من بيوتات الحيوانات الحديثة التـــي تتوفر فيها كافة الشروط المتكاملة لاي حديقـــة حيوان حديثة وهي بمواصفات بديعة من حيث الشكل والمحتوى وقامت الامانة باستيراد اعـداد كبيرة منانواع الحيوانات التي تدخلالحديقة لاول مرةكالقرود العليا (انسانالغاب والغوريلا) والفيلة وافراس النهر وكلاب البحر الخ .. وقد استغلت الجزيرة الوسطية للحديقة لانشاء حديقة طليقـــة للقرود تحاكي بيئتها الاصلية .

واتجهت نية امانة العاصمة الى اقامة العديد من حدائق الحيوان الصغيرة والمتوسطة في متنزهاتها المختلفة مثل الحديقة التي تنوي الامانة اقامتهـــا ضمن مشروع نهر الخير ، حيث انتهت من تحديد العمل في انشائها في كورنيش الاعظمية وابي نواس.

وسبق ان انتهت الامانة من انشـــاء ثلاث متنزهـــات هي الف ليلة والفـردوس والرياحـين وتضم هذه المتنزهات حدائق صغيرة ـ تتـراوح مساحاتها بين ثلاثة الاف الى خمسة الاف متر مربع فيها عددا من انواع الطيور والغـزلان والقـــردة وغيرها من الحيوانات النادرة .

المراجع

(١) الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري/آدم متز ، ترجمة : محمد عبدالهادي ابو ريدة . القاهرة ـ ١٩٤٧ .

(٢) دي سامراء في عهد الخلافة العباسية/د. احمد سوسة/ الجزء الثاني ، مطبعة المعارف ـ بغداد ، ١٩٤٩ .

(٣) الصيد عند العرب/د. عبدالرحمن رأفت الباشا/دار النفائس ، بيروت ـ ١٩٧٤ .

(٤) مروج الذهب/للمسعودي . طبع القاهرة .

(٥) حدائق الحيوانات في العراق/سليم طه التكريتي/مجلة السياحة (مصلحة السياحة العامة) ، بغداد ـ ١٩٧١ ، العدد (٥) .

(٦) حدائق الحيوان في العصور الاسلامية السالفة/ميخائيل عواد ، مجلة هنا بغداد ـ ١٩٥٧ ، العدد (١٥٣) .

(٧) حدائق الحيوانات التي انشأها نيرز باشا شاه/مجلة المقتطف/المجلد ٢٩ ، القاهرة .

(٨) حدائق الحيوانات في التاريخ / عادل محمد علي الشيخ حسين/مجلة السياحة العدد ٧٥ ، السنة (٢) ، بغداد ١٩٦٧ .

(٩) تطور علم الحيوان في الحضارات القديمة/عصام الملائكة، مجلة سومر ، الجزء (١ و ٢) ، المجلد (٣٠) ، بغداد ـ ١٩٧٤ .

(١٠) البيئة الطبيعية القديمة في العراق/فؤاد سفر ، مجلة سومر ، الجزء (١ و ٢)/المجلد (٣٠)/بغداد ـ ١٩٧٤ .

(١١) حدائق الحيوان/د. حسين فرج زين الدين وسعيد محمود محمد (دائرة معارف الشعب) القاهرة ـ ١٩٦١ .

(١٢) الحدائق في العصور القديمة/المرنة/المجلد الاول ، بيروت . لم يذكر التاريخ .

(١٣) البركة الجعفرية في سامراء/د. احمد سوسة/مجلة بغداد ، العدد ٨ ـ بغداد ١٩٦٢ .

(١٤) مديرية الاعلام في امانة العاصمة ـ بغداد .

(١٥) مجلة امانة العاصمة ، العدد ٥ ـ ١٩٧٧ . بغداد (عن حدائق حيوان الزوراء) .

(١٦) معلومات شخصية عن حدائق الحيوانات .

(١٧) دائرة المعارف الانكليزية/المجلد (١٩)/١٩٦٧ ـ لندن (عن حدائق الحيوانات في العالم ـ) .

WWW.ATTAWEEL.COM